

إمالي المرتضى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ أبي محمد العرجاوى

من علماء المعهد الدينى بالاسكندرية

أيسمح لى السادة الامائل القائلون على تحرير مجلة ((رسالة الإسلام)) أن أروّح عنهم وعن قرائهم قليلا بحديث ليس من أحاديث الفقه ، ولا من أحاديث التقريب ، ولكنه حديث يتصل بالادب والشعر ، فانهم ليعلمون أن السائر فى طريق إذا جعل يغذ السير ويلح فيه ، فلا يستجم ، ولا يعرج عنه يمينا ولا شمالا ، فهو حرى أن يمل ؟

ولن يكون حديثى أدبا صرفا ، ولا شعرا صرفا ، وإنما هو أدب وشعر مزوجان بالعلم ، فإنى رأيت خير الادب ما أعان على العلم ، وأوفى بلذة العقل .

* * *

بكرت على منذ علقت بالادب والشعر شاديا ، كتاب جيد لعالم أديب لم أزل أدرسه وأقبله وأأمل ما فيه وأصاحبه فى غدواتى وروحاتى ، وفى حلى وترحالى ، وأتخذة جليسا آنس إليه ، وأقبل عليه ، حتى ألفتى بعد حين أكاد أحفظه ، وأدرك جميع مراميه ، وقد أثر فى منهجه وأسلوبه ، فإنى لشديد الإلف لها ، عظيم الحرص عليهما .

ولقد يعلم كل مكابد لصناعة ، أو مزاول لبضاعة ، ما هى النقطة التى بدأ منها

عهده ، وكانت فاصلة في توجيه حياته ، وما من أديب أو عالم أو مفكر أو مخترع أو مصلح إلا كان لشيء ما قد اعترض سبيله ، تأثير في نفسه ، وتوجيه لقلبه ، علم أو لم يعلم ، وقد كان لهذا الكتاب في حياتي الأدبية — إن صح أني من عشاق الأدب — هذا التأثير ، وكان لمؤلفه العظيم الفضل الأول في ذلك التوجيه .

أما الكتاب فهو « أمالي السيد المرتضى » ، وأما صاحبه فهو الأديب العالم ذو المجدين أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن موسى السكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ابن أمير المؤمنين زوج فاطمة البتول علي بن أبي طالب ، رضى الله عنهم أجمعين . وإنما ذكرت نسبة ليعلم الناس أى عرق من البيان والعلم دس إليه ، وأى دم طاهر نقي جرى في أعراقه ، فيجبهه كما أحببته ، ويدرسوه كما درسته .

وللكتاب طريقتة الفريدة الفذة في الجمع بين العلم والأدب فهو مجالس املى فيها السيد مسائل متفرقة في تأويل بعض الآيات أو الأخبار النبوية ، أو أحاديث الأدب أو طرف الشعر ، فتراه يبدأ بأحد هذه فيصور لك معناها في عبارة واضحة جلية ، أو يوقفك على عقدة فيها تستحق السؤال والنظر ، ثم يمضى بك بعد ذلك في رحلة فكرية شائقة كل خطوة من خطواتها متاع لنفسك وروحك ، وغذاء لعقلك وقلبك ، فلا تنتهى رحلة منها إلا وقد تزودت زاداً قيماً صافياً متنوعاً ، تشعر معه بالغبطة والسعادة والرضى .

وهذه الرحلات الممتعة التي سماها المؤلف « مجالس » ، لأنه أملاها على تلاميذه في بعض مجالسه ، تصل عدتها إلى الثمانين ، وتقع في أجزاء أربعة متوسطة هي ما يعرفه الناس باسم « أمالي المرتضى » .

وبين يدي الآن الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهذا هو المجلس التاسع من مجالسه الممتعة :

بدأه المؤلف بقوله :

« إن سألت سائل : ما وجه التكرار في سورة « الكافرين » ، وما الذى حسن

إعادة النفي لكونه عابدا ما يعبدون ، وأكونهم عابدين ما يعبد وذكر ذلك مرة واحدة يغنى ؟ وما وجه التكرار فى سورة « الرحمن » لقوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟

هذا هو السؤال الذى طرحه على المجلس ، السيد المرتضى ، فأثار به معنى يراود النفوس ويدخلها وكثيرا ما يسأل عنه السائلون ، لا ترددا فى بلاغة القرآن وسمو بيانه ، ولكن تطلعا إلى ذكر أسرارہ ، وتذوق معانيه ، ولم يزل ذلك لونا من ألوان التطبيق البلاغى والأدبى تمرّن به الملكات ، وتشخذ العقول وتطمأن القلوب .

ثم بدأ الشيخ يلقي الجواب ، فليخص أولا ما ذكره ابن قتيبة فى معنى التكرار وهو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئا بعد شيء ، فكان المشركين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : استلم بعض أصنامنا حتى نؤمن بك ونصدق بنبوتك ، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « لا أعبد ما تعبدون » ثم غيبروا مدة من الزمان وجاءوه فقالوا : اعبد بعض آلهتنا واستلم بعض أصنامنا لنفعل مثل ذلك بإلهك فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ولكن السيد المرتضى لم يعجبه هذا التوجيه فردّه وأبطله ، وتالله إنه لحق ، فما كان الكتاب الكريم ليخضع لمثل هذا التزيق الذى يريد أن يمزقه به هؤلاء وأمثالهم ، وما كان هذا وجها يرتضيه الذوق الأدبى والبلاغى فى أسنى كتاب جاء مطابقا للبيان الشريف ، والأدب الرفيع . ولذلك رده السيد ، وانتقل إلى غيره فذكر أوجها ثلاثة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة ، ولا نطيل بذكر الأوجه الثلاثة وإنما نذكر أولها فحسب ، وهو ما حكى عن ثعلب من قوله : « إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ؟ وقال من بعد : ولا أنا عابد ما عبدتم

في المستقبل ، ولا أتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ، فاختلفت المعاني ، وحسن التكرار في اختلافها .

ثم مضى المؤلف في تعداد الأوجه الأخرى ، حتى إذا انتهى منها ، تحدث عن التكرار في سورة الرحمن ، فبين أنه إنما حسن التقرير بالنعمة المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، وويج على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره . ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت كذا وكذا ، فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به ، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم .

قال مهلب بن ربيعة يرثي أخاه كليباً :

وهمام بن مرة قد تركنا	عليه القشعمان من النسور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما ضم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا خرجت بحبابة الحدور
على أن ليس عدلاً من كليب	إذا ما أعلنت نجوى الأمور

وقالت ليلي الأخيلية ترثي توبة بن الحمير :

لنعم الفتى يا توبُ كنت ولم تكن	لنسبق يوماً كنت فيه تحاول
ونعم الفتى يا توبُ كنت إذا التقت	صدور الأعالى واستشال الأسافل
ونعم الفتى يا توبُ جاراً وصاحباً	ونعم الفتى يا توبُ حين تناضل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقده	بجد ولو لامت عليه العواذل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقده	ولو لام فيه ناقص العقل جاهل
لعمري لآنت المرء أبكى لفقده	إذا كثرت بالملكحمين البلايل
فلا يبعدنك الله يا توبُ إنما	لقت حمام الموت والموت عاجل
ولا يبعدنك الله يا توبُ إنما	كذلك المنايا عاجلات وآجل
ولا يبعدنك الله يا توبُ ، والتقت	عليك الغواصي المدجنات الهواطل

فخرجت فى هذه الآيات من تكرار الى تكرار لاختلاف المعانى التى عدتها على نحو ما ذكرناه .

وقال الحارث بن عباد وكان قاضى العرب :

قربا مربط النعمة منى لقحت حرب وائل عن حبال

ثم كرر قوله : « قربا مربط النعمة منى » فى آيات كثيرة من القصيدة بالمعنى الذى ذكرناه .

وقالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترى زوجها :

وحدثني أصحابه أن مالكا أقام ونادى صحبه برحيل

وحدثني أصحابه أن مالكا ضروب بنصل السيف غير تكسول

وحدثني أصحابه أن مالكا خفيف على الحداث غير ثقيل

وحدثني أصحابه أن مالكا جواد بما فى الرحل غير بخيل

وحدثني أصحابه أن مالكا صرور كاضى الشفرتين صقيل

وهذا المعنى أكثر من أن نخصيه .

ثم استطرد السيد المرتضى من ذلك إلى لون آخر فقال : « وكما أنه فى الجاهلية وقبل الإسلام وفى ابتدائه قوم يقولون بالدهر وينفون الصانع ، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم ، ويستزلون الرزق من غير رازقهم ، أخبر الله عنهم فى كتابه ، وضرب لهم الأمثال ، وكرر عليهم البينات والأعلام ؛ فقد نشأ بعد هؤلاء جماعه ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعائره والدخول فى جملة أهله ، دمه وماله زنادقة ملحدون وكفار مشركون ، فمنعهم عز الإسلام عن المظاهرة ، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة ، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ ، لأنهم يدغلون فى الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع ، فعل من قد أمن الوحشة ، ووثق بالأنسة ، بما يظهره من لباس الدين الذى هو منه على الحقيقة عار ، وبأثوابه غير متوار . كما حكى أن عبد الكريم بن أبى العوجا قال لما قبض عليه محمد بن سليمان ، وهو والى

الكوفة من قبل المنصور ، وأحضره للقتل ، وأيقن بمفارقة الحياة :
 لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة .
 والمشهورون من هؤلاء : الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحدادون : حماد الراوية ،
 وحماد بن الزرقان ، وحماد بن عجرد ، وعبد الله بن المقفع ، وعبد الكريم بن أبي العوجا
 وبشار بن برد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثي ، وصالح بن عبد القدوس
 الأزدي ، وعلى بن خليل الشيباني ، وغير هؤلاء ممن لم نذكره ، وهم وإن كان
 عددهم كثيراً ، فقد أقلمهم الله وأذلهم وأرذلهم بما شهدت به دلائله الواضحة وحججه
 اللامحة على عتولهم من الضعف ، وآرائهم من السخف ، ونحن نذكر من أخبار
 كل واحد من ذكرناه وتهمة في دينه ، نبذة نوصي فيها إلى جملة كائنية ، والذي
 دعانا إلى التشاغل بذلك وإن كانت عنايتنا بغيره أقوى ، مسألة من نرى إجابته
 ونؤثر موافقته ، فتكلفناه له من أجله ، مع أنه غير خال من فائدة ينفع عليها ،
 ويُتأدب بروايتها وحفظها .

ومضى بعد ذلك يقص أخباراً عن ذكر ، ويعدد هنات ، فكان منها ما يروى
 عن الوليد بن يزيد من أنه نشر يوماً المصحف ، وكان خطه كأنه أصابع ، وجعل
 يرميه بالسهام ويقول :

يذكرني الحساب ولست أدري أحقاً ما يقول من الحساب ؟
 فقل لله يمنعي طعامي وقل لله يمنعي شرابي

قال الشريف المرتضى : ويله من هذه الجريمة على الله ويلا طويلاً ، وما أقدر
 الله أن يمنعه طعامه وشرابه وحياته ، وما أولاه اللعين بأليم العذاب ، وشديد
 العقاب لولا ما تتم به المحنة ، وينتظم به التكليف ، من تأخير المستحق من الثواب
 والعقاب ، وتبعيدهما من أحوال الطاعات والمعاصي .

ثم قال :

وَأما حماد الراوية فكان منسلخاً من الدين ، وزارياً على أهله ، مدمناً لشرب
 الخمر ، وارتكاب الفجور ، وقال أبو عمرو الجاحظ : كان منقذ بن زياد الهلال ،

ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحفص بن أبي ودة وقاسم بن زقتمطة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبي فروة ، وحامد بن عجرد ، وعلى بن الخليل ، وحامد بن أبي ليلى الراوية وحامد بن الزرقان ، ووالبة بن الحباب ، وعمارة بن حمزة بن ميمون ، ويزيد بن الفيض وجميل بن محفوظ المهلبى ، وبشار بن برد المرتضى ، وأبان اللاحقى ، يجتمعون على الشرب وقول الشعر ويهجو بعضهم بعضا وكل منهم منهم فى دينه . . وعمل يونس ابن أبي فروة كتابا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه وصار به إلى ملك الروم فأخذ منه مالا . . وقال أحد بن يحيى النحوى قال رجل يهجو حمادا الراوية :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد
بسطت مشافره الشمول فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وأبيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد
لا يعجبك بزؤه ولسانه إن الجوس يرى لها أسباد

وكان حماد مشهورا بالكذب فى الرواية ، وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ، ودسه فى أشعارهم ، حتى إن كثيرا من الرواة قالوا قد أفسد الشعر لأنه كان رجلا يقدر على صنعة فيدس فى شعر كل رجل ما يشاكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم ، وهذا الفعل منه وإن لم يكن دالا على الإلحاد ، فهو فسق وتهاون بالكذب فى الرواية .

وهكذا مضى السيد المرتضى فى طرائف تتلوها طرائف ، مما لا يتسع المجال لبسطه ، حتى ختم هذا المجلس بقوله عن بشار بن برد :

« وكان بشار مقدما فى الشعر جدا حتى إن كثيرا من الرواة يلحقه بمن تقدم عصره عليه من المجودين . . وأخبرنا المرزبانى عن محمد بن يحيى الصولى قال حدثنا محمد بن الحسن الشكرى قال . قيل لأبي حاتم من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

ولها مبسم كفر الأقالى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت فى السواد من حبة القلب ، ونالت زيادة المستزيد

عندهما الصبر عن لقاءٍ وعندى زفرات يأكلن صبر الجليد

يعنى بشارا ، قال : وكان يقدمه على جميع الناس . ولما قال بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النأي والعود

بلغ المهدي ذلك ، فوجد عليه وكان سبب قتله .

أما بعد :

فهذا لون من ألوان الأدب الرفيع : أدب يفتح الشهية للعلم ، ويرجى إلى قارئه كثيرا من الفوائد التي تخرجه وتثقفه ، وتزيد في علمه ، وتربى ذوقه ، وتثير مواهبه ، وتنشط ملكاته ، أدب دسم كالطعام الجيد الذي يفيد منه الجسم ، وليس كهذا الأدب الصحنى الذى يلينا به في حياتنا الحاضرة ، فأفسد الأذواق ، وقتل المواهب ، وتحيف حق اللغة في ألفاظها الرصينة ، وأساليها القويمة ، وحق الشداة والمتأدبين في أن يجدوا بين أيديهم مثلًا تطبيقية عالية ، تكون لهم أسوة ، وتصلح لهم قدوة .

لقد استطاع السيد المرتضى أن يمنح تلاميذه في مجلس واحد ، قسطا من دراسة القرآن ، وقسطا من التاريخ الأدبي لجماعة من الأدباء والشعراء ، وشيئا عن تاريخ الملوك والخلفاء ، وأمثلة من جيد الشعر ، واستطاع أن يفتح عيونهم على ما كان يتصف به بعض أهل الرواية من انحلال أو تحلل في النواحي الشخصية والعلمية والدينية ، حتى يفتح أمامهم باب الحيلة والنقد الصحيح ، ويعودهم أن يقيسوا كل شيء بحساب ، واستطاع مع هذا كله أن يظفر بإقبالهم وشغفهم .

أفليس هذا الكتاب جديرا بأن نجول في مغايه ، وتدبر في معانيه ، فنتمع

به العقول والقلوب ؟ بلى ورب البيت ؟